الكتابة للطفل تبدأ ولا تصل أبدًا
فهى محاولة الإمساك بقبس من النور

أ. ثريا عبدالبديع

كاتبة أطفال

هى فرحة تلقى قطرة الندى الأولى فى صباح مدهش... هى الكتابة المفرحة حيث تعود لتلتقى بذاك الطفل داخلك بشقاوته بتمرده بمشاكساته بعبثه وفوضاه، بخوفه وعناده بحبه للاستحواذ على اهتمامك بأنانيته وغروره بتمرده بخياله الواسع حتى الكذب مدعيًا قوة وعدم رهبتك أنت أيها الكبير، وننظر كيف نتصرف نحن الكبار لكتاب الطفل، وكيف نتعامل مع هذا الطفل داخلك المشاغب بكل إيجابياته وسلبياته، تقدم عليه برغبة فى أن يحبك ويستمع الى كلامك وتتقرب إليه تشوقه وترغبه فى موضوعك، كيف تكون جاذبًا له ومفيدًا وحكاءً، كيف تهذب فوضاه بمشاركته الفوضى! كيف تضع يده على الفرق البسيط بين الأنانية والغرور، وبين عزة النفس والثقة بالنفس، كيف تشاركه أشياءه فيحب المشاركة، كيف تجعله يمتن لمن يقدم له شيئا ولو صغيرًا، هذا اللقاء مع الطفل داخل كاتب أطفال يحدث بتلقائية وحب واستدعاء بسيط غير متكلف المفروض وكلما كانت الحلقات مستحكمة بين الطفل والكاتب والمواقف المستدعاة كان الأمر أكثر صدقًا وتأثيرًا فيفرح الكاتب ويقفز وينط ويجرى ويطير على الورق، يعاند ويتخيل ويكذب ويبالغ فى حكاياته، ويكره العقاب ونعالج هذا بهدوء كما يتسرب الماء إلى جذر الوردة فنجدها قد تفتحت بعد دقائق دون ضجيج.

هكذا هى الكتابة للطفل كتابة كما الماء تتسرب للروح والجسد معا. هى عودة لنقطة البراءة فينا عودة إلى تاريخنا وقتما لم نفهم بعد أطماع الطامعين ولم نضطر بعد للاحتياط والتمثيل والتصنع.

ولنفس تلك الأسباب تكون صعوبة الكتابة للطفل فليس جميع الكتاب قادرون على الوصول إلى نقطة الضوء والبراءة داخلهم فبعد تلك السنوات من العمر نجد أنفسنا ابتعدنا كثيرًا عن بداياتنا ونسيناها أو تناسيناها أو قهرناها أو محوناها محوًا برغبتنا وليس أحب إلى من التعبير عن الكتابة للطفل من نص رقيق عذب حبيب إلى نفسى وأحسه بفخر النملة.

جزء من نص "نمولة والنسر" :

- أشارت نمولة إلى الشجرة وسألت أمها :
- هل ترين تلك الشجرة العالية هناك يا أمى؟
- أجابت أمها : نعم يا حبيبتى.
- أتمنى أن أطلعها يومًا.
- مشت نمولة بجوار أمها حتى رأت طائرًا كبيرًا يطير فى السماء سألت : هل تعرفين الطائر البعيد هناك يا أمى؟
- نعم يا حبيبتى إنه النسر.
- سألت : هل يعرف النسر إننى هنا؟
-قالت أمها : الطيور البعيدة فى السماء لا تهتم بالمخلوقات الصغيرة على الأرض.
- قالت نمولة : ياه نسر قوى قد نكون أصدقاء يومًا!

وتكتمل الحكاية.

إن متعة الدخول إلى قلب النملة فرحة هى نفس الفرحة التى يحسها طفل يجد طائرته الورقية الصغيرة ترتفع جدًا لتصل إلى أعلى وأعلى رغم أنها أصغر من طائرات رفاقه وربما إمكاناته أقل منهن جميعا! هى أيضًا تساوى فرحة الصياد عند حصوله بعد مشقة إلى أجمل وأندر لؤلؤة وعبوره سبعة بحور مثلاً! هى فرحة للوصول إلى النادر والبرئ والنقى، الدخول إلى عالم الطفولة وبراءة الأشياء تدخل إلى كل العوالم المسحورة. سواء سمعت بها أو لم، تدخل مرة عالم الأشباح والكرة البلور ومرة تصير الشاطر حسن الذى يرجو الزواج من ست الحسن، وقد تجد نفسك تكتب عن الأقزام فتكون انت أمير الأقزام تحس إحساسهم وترى بأعينهم!

وتعتبر رموز عالم الطفولة وأدب الطفل هى ذات الأشياء المحرضة والمثيرة للخيال وطالما اشتبك خيالنا معها مرة أو سرحنا بها فى نعومة وهدوء مرة فى طفولتنا منها : الطائرة الورقية - مركب النهر - القمر والشمس - البحيرة المسحورة والأراجوز والسيرك والمهرج - البلياتشو - الأقزام والعرائس الخشبية والسيرك بحيواناته - كما أثارتنا حكايات الأشباح والأميرات والأمراء والجنيات والبحور السبعة والأراضين السبعة والساحرة الطيبة ومثلها الشريرة، وغيرها من رموز. فمن منا لم يثر خياله فى سقف الغرفة وخيالات الشموع وانتظار المسحراتى فى ليل رمضان؟ فكل تلك الرموز هى رموز السعادة ومفاتيح بوابات الكتابة للطفل - فى كل آداب العالم من بدايات ألف ليلة وليلة ، للأدب الصغير لابن المقفع، لحكايات لافونتين وقصص أندرسون - هى نفسها منابع قصص تولستوى الساحرة هى أبطال عالم الطفولة و مفردات الأدب المقدم لهم.

الكتابة للطفل مصفاة كبيرة، أو للدقة كاتب الطفل هو نفسه مثل الإسفنجة تمامًا فحين نكتب للطفل ننسى فلسفات وكتابات وعبر التاريخ إلا قليلاً : ننسى بعضًا من وجودية سارتر كثيرًا من تاريخ الرافعى وأسلوب العقاد، وننسى تمرد وإلحاد ملحد أو تطرف متطرف، نتناسى لأجل الطفل ما قرأناه وما تعلمناه من تطبيق نظرية واختبارات وتحليلات وكيميائيات لكن ماذا نتذكر إذن؟ ماذا يتبقى لنا؟ يتبقى هناك موسيقى موتسارت أو عمر خيرت أو السنباطى أو بعض من سخرية وفكاهة الريحانى أوشابلن، فهم - أى الأطفال - يعشقون الابتسام والضحك والمتعة فلا ينجح عمل للطفل ولا كاتب لا تضحك حكاياته أو على الأقل تضفى شيئًا من بهجة على النفس.

كل تلك المعارف السابقة والقراءات و.. و.. ماهى إلا مصافى تعبر من خلالها الحكاية ، فتمر منها الحكاية لتخرج بالبسيط والدقيق واللين والأجمل من الألوان والقيم والعادات تتسرب الحكايات من تلك المصافى بهدوء وانسيابية بحيث لا يلحظ الطفل مقاصدك وأهدافك التربوية : المعرفية والسلوكية واللغوية والنفسية والعقلية وإلا وجدت منه نفورًا وابتعادًا عن العمل.

كيف نرى الأبطال فى العمل؟

النملة والأسد والساحر وخيال الظل والأمير... و... هى نماذج وأمثلة تربوية فنحن نربى من خلال البطل. ننفذ إلى العقل الباطن والواعى معًا للطفل لنقوم بعمليات الإرشاد والتقويم والتصحيح وغرس بذور قيم ومفاهيم وجماليات وتربية كل جوانب الشخصية دون أن يشعر، ويصح ألا يكون البطل مهمشًا ولا يجوز أن نهمله فى الحكاية ولا أن يتعدد الأبطال لأنه باختصار يمثل بطل الحكاية وإن كانت نملة ولذا يصح أن تتصف تلك النملة أو أى بطل بكل الصفات التى نحب أن يكون عليها صاحبنا الطفل وتكون أفعال البطل من الوضوح والصراحة والفاعلية والأهمية للأفعال العادية هى عادية أيضًا فى نظره!!

وفى نهاية تلك الرحلة الوجدانية حول الكتابة للطفل فإنه لم يزل هناك جانب من العقل المراقب والذى يوجد داخل الحكاية على استحياء يفكر برفق فيما يقدم دون أن يشعر بنا، فالعمل الجيد يتسرب إلى عقله ووعيه ولا وعيه أيضًا، ويبدأ فى تربيته والحديث مع صفاته ودوافعه وتناقضاته.

ومع رحلة الوصول نحو نقطة الضوء داخلى أحس بامتنان شديد للكتابة للطفل، لتلك الكتابة جناحان : الكتابة الحرية الكتابة الغوص. كتابة تعرف طريقها نحو الكائنات بلا تعقيدات ولا حواجز أجدنى فجأة قفزت للطفل داخل نفسى أكتبه وأكتب أمنياته وحكاياته ومخاوفه، أيضًا تلك الكتابة الفرحانة ببراءتها وقفزاتها وحريتها من الأفكار المسبقة، هى كتابة الدهشة، فمن لم يكتب للطفل أو لنقطة الضوء لم يفرح، وبالتالى لم يصل.